# فردريك شولهتس وأمية بن أبى الصلت

للأستاذ محمد هاشم عطية
المدرس بدار العلوم

فردريك شولهتس عالم ألمانى شرح أشعار أمية بن أبى الصلت ، وطبع ديوانه سنة ١٩١١ وإليه رجع أكثر الفضل فى إحياء التاريخ الأدبى لهذا الشاعر المشهور. وقد كنا نشعر فى أنفسنا بدافع خفى ينهانا دائما عن الاستسلام لآراء كثير من المستشرقين فيما توفروا على دراسته من الأدب العربى ، وكنا نهم بالاتهام لعنايتهم المبذولة لآثار المشارقة لأنها ربما كانت ستاراً لدسيس كمين من العصبية المذهبية ، حتى صح لنا القول بأن كثيراً من الناس يخدعهم أولئك المستشرقون باتخاذ هذه المباحث الأدبية وسيلة للطعن فى عقائد الشرقيين وشرائعهم ، لغلبة هذه النزعة العدائية على شعورهم الدينى الذى يغريهم بالإسراف والتمويه والافساد للحقائق . ويكفى فى الاستدلال على هذه الظاهرة من التعصب أن نعرض لرأى هذا العالم فى الموازنة بين أمية بن أبى الصلت وبين محمد رسول الله . وبين أشعار أمية والقرآن.

يقول ذلك العالم : « إن اخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد يتوقف على إيجاد ديوان عربى قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة . وبفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن ستمئة بيت لأمية لا يعقل أن تكون كلها منحولة أو غير صحيحة . وينكر رأى « كليمان هوار » فى أن محمداً استعان بشعر أمية بن أبى الصلت . ولكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا فى ثقافة واحدة ونقلا عن مصدر واحد . ويرفض عقيدة المسلمين فى أمية محمد وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، ويجعل خلاصة آرائه فى هذه الموازنة أن أمية كان أشد ذكاء وأبلغ أداء من محمد فى هذه الرسالة ، ويتخذ القصص فى شعر أمية وفى القرآن دليلا على حظ أمية من الدقة والذكاء دون محمد ، بناء على أنه أمثلة كاملة من التاريخ أجاد الشاعر نظم فصولها ورتبها على نمط يحقق الصلة بينها وبين ما نقلت عنه من الأساطير » .

ومن العجب أن يكون هذا البحث العقيم مذهبا لغير واحد من علماء الأجانب الذين لا سبيل إلى انكار مالهم من الجهد الفاضل على الأدب والعلم لولا هذه الآفة المذمومة . وظاهر أن هذا العالم قد بدأ موازنته بالاطمئنان إلى صحة الشعر المنسوب إلى أمية فى الجملة ، وأنه لا يعقل أن تكون ستمائة بيت لأمية كلها منحولة أو غير صحيحة . وهى النظرية التى يضعها العلماء والمستشرقون خاصة موضع التهمة ، وكثير من علمائهم لا يميلون إلى الاعتراف بهذا العصر الجاهلى بأسره ، ولا يقرون ما ينسب إلى شعرائه من الشعر ويزعمون أن هذه الكثرة المطلقة من أسماء الشعراء والسادة والفرسان والملوك والقبائل والأماكن والأيام كلها شبيهة بالأساطير التى لا تمثل شيئاً ولا تتصل من الواقع الصحيح فى شىء . ولكن هذا العالم لحاجته إلى استخدام هذه الموازنة فيما يخفيه من الغرض يعترف هنا بما ينكره فى غير هذا الموضع ، ومع غير هذا الشاعر فهو يصحح نسبة أكثر الشعر المنسوب إلى أمية ، وينزهه عن الاختلاق والدس لأن الغاية كما يقولون تبرر الوسيلة . فأمية إذاً شاعر صحيح النسب معروف المولد والمنشأ والحياة والشعر ، وليس ذلك مستمدا من البحث الصادق ولا مستنداً إلى الدليل الصحيح ، وإنما هو أثر ما أسلفناه من الميل العصبى والغرض الدخيل . ثم يضع نفسه بعد ذلك موضع المرافع عن محمد والمحامى عنه فى مهاجمة خصم آخر من خصوم الإسلام يزعم أن شعر أمية كان مرجعا من المراجع التى استعان بها محمد على تأليف القرآن ، فينكر هذا الرأى وكأنه يستقله فى الطعن على محمد ليعود من جديد فيقول : « إن محمداً وأمية كانا تلميذين فى مدرسة واحده واشتركا فى ثقافة واحدة ونظم أمية شعره وألف محمد كتابه اعتماداً على أساطير أدبية واحدة » فيصير دفاعه على هذه الشاكلة نوعا من السخرية وأسلوبا من التهكم فى الاستدلال على نفى الهفوة بالاثبات للخطيئة . ويقول : إن أمية محمد عقيدة فاسدة وأنه لابد أن يكون حاذقا بالقراءة والكتابة لعجزه عن إدراك الأسباب التى أدت إلى أن يقوم دين وتنشر رسالة ويتأسس ملك وفتح ودولة وتاريخ بالاعتماد على فطرة رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب . مع أن كثيراً من أفذاذ الدنيا ومن آحاد الرجال فى التاريخ كان ينقصهم الاتصال

بكثير من العلوم والفنون والآداب ولم يمنعهم ذلك من بناء مابنوه لأنفسهم على عاتق الزمن من المجد والشهرة . وهـذا مؤسس مصر الحديثة وباعث هذه النهضة العلمية فى مصر وجاراتها « محمد على » والى مصر الكبير كان أميا حاول أن يتعلم الكتابة بعد سن الأربعين ، وهو قد ملأ الشرق فى أيامه مجداً وعظمة ، وأزعجت جيوشه وأساطيله كثيرا من الأمم الكبرى على شواطىء البحر الأبيض ولم تقف هـذه الأمية فى سبيل نبوغه الفطرى وصفاته الخارقة للعادة . وإذاً يكون موقف هذا العالم من أميّة محمد صلى الله عليه وسلم أكثر حظًّا من السخافة والخطأ من موقفه فى شعر أمية .

أما ماذكره عن القصص فى القرآن وأن أمية كان أبلغ فيه أداء من محمد : فنحن نخصه بمزيد تحقيق وبسط لاحتمال خفاء الصواب فى هـذا البحث على كثير من غير المحققين من العلماء ، ولأن ما عداه من رأيه غير جدير بالنظر لظهور بطلانه ولتجرده من أثر التعقل الصحيح . ومن المعلوم أن القصص فى القرآن وإن وجد منه شيء فى الشعر أو كان متفقا مع ما وردت به شرائع المتقدمين إنما يجيء دائما على نمط يخالف مذاهب المؤرخين فى توخيهم لسرد الحوادث ، كما هى من غير محاولة لزيادة أو نقص . فهو يرمى إلى اتخاذ الماضى وسيلة للعبرة وطريقا إلى تقرير قواعـد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع . وانظر إلى ذلك فى قصة ابراهيم مع أبيه وقومه حيث يقول الله تعـالى ( وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضـلال مبين وكـذلك نرى إبراهيم ملـكوت السموات والأرض وليـكون من الموقنين فلما جن عليـه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ) وقوله ( إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ) وحيث يقول فى سورة مريم : ( يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ) الآيات ، ومثل هذا النوع من المحاورة والجدل فى سورة الشعراء بين موسى وفرعون . وستعلم من هذا وأشباهه أن الغاية من نظم هذه القصص فى القرآن لم تكن تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب الأساطير

وإنما الغرض هو إثارة النظر فى حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى نشأة العقيدة والتأمل فى كيفية تطورها فى الأجيال الماضية والاشارة إلى تأليه الانسان القديم لكثير من الظواهر الكونية ، بسبب ماكانت تثيره فى نفسه من القلق والرعب ، حتى تبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة . وهو مسلك المنطق السليم فى بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة ، ويتكرر القصص ليتكرر معه مايتصل به من العظة وليحكى من جديد ناحية أخرى من الحكمة مع الترقى إلى الاحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً . ثم انظر إلى مثل هذا الصنع فى قصة سليمان وبلقيس وما تتضمنه من الدلالة الدقيقة على أصح ما يصل إليه الفكر من فلسفة التشريع والاشارة الصريحة إلى أخطار الاستعمار وإذلاله لعزة الشعوب حين يحكى القرآن استشارتها للملأ من قومها بعد ما جاءها كتاب سليمان بالدعوة إلى الاسلام إذ تقول : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » فترى كيف وصف القرآن قيمة الأثر الناشىء من تقدير الملك لشعبه باحترام رأى الملأ من قومه وما يثيره من عواطف الطاعة المنطوية على أكمل صور المحبة من الرعية لحاكمها بما يترتب عليه طبيعة مثل هذا الجواب الحكيم فيما وصفوا به أنفسهم من القوة وشدة البأس وأخذ الأهبة الكاملة لامتثال ما يؤمرون به فى خلوص نية ومضاء عزم . ذلك هو دستور الحياة التى تتسابق الأمم إلى صيانته واختيار الأصلح للبقاء من أوضاعه . وجاء بعد هذا البيان البليغ بذكر بشاعة الاستعمار ووصف جرائره على حياة الأمم فى قوله : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . وحسبك أن تكون لك عين ترى وأذن تسمع لتدرك فظائع المستعمرين فى استهلاكهم لثمرات الأمم واسرافهم فى الجناية عليهم بما تقشعر منه الجلود وترتعد الفرائص له . ثم يختم هذا المقطع البليغ بقوله « وكذلك يفعلون » تقريراً لشمول هذا الحكم لطبقات البشر على الزمان كله مما لايعقل صدوره إلا

عن العالم بما كان ومالم يكن ، مما تتقلب فيه صور الحياة وطبائع الأمم . ولقد كنا فى غنى عن الاستدلال على فساد هذا الوهم لولا إشفاقنا أن يتأثر به نفر من المخدوعين بمباحث هؤلاء العلماء الذين يقلدونهم فى نشر هذه السخافات من غير كبير نظر ، كمن لا يعلم عن نشأة الاسلام شيئاً ، ولا يعرف عن صاحب الدعوة قليلا ولا كثيراً . وكأنهم لا يشعرون بآثار الثقافة الاسلامية فى مدنية العالم الحديث .

وقد اخترنا أن نذكر قصيدتين من أشعار أمية بن أبى الصلت القصصية ، ونضع إلى جانبهما ما اشتمل على معناهما من القرآن لتحقق الدليل على ما أضافه هذا العالم إلى نفسه أو على ما اتصف به من فساد الذوق وخطأ البحث . والقصيدة الأولى تتضمن قصة إبراهيم ونذره لله أن يذبح أحد ولديه إسحاق أو إسماعيل قال :

ولابراهيم الموفى بالنذ ر احتساباً وحامل الأجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه فى معشر الأقتال
يابنى : إنى نذرتك للـــه شحيطا فاصبر فداً لك خالى
فأجاب الغلام أن قال فوه كل شىء لله غير انتحال
أبتى : إنى جزيتك باللـــه تقياً به على كل حال
فاقض ما قد نذرت لله وا كفف عن دمى أن يمسه سربالى
واشدد الصفد أن أحيد عن الســـكين حيد الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السرابيل عنه فكه ربه بكبش جلال
قال : خذه وأرسل ابنك إنى للذى قد فعلتما غير قالى

وظاهر من هذه الركاكة فى نظم القصة وما اشتملت عليه من الكلمات النابية والقوافى القلقة الفرق البعيد بينها وبين ما تضمنها من القرآن . فمثل قوله « وحامل الأجزال » و « أن قال فوه » و « فداً لك خالى » وغير ذلك مما أعرضنا عن ذكره بالغ كما ترى إلى الغاية فى الرداءة والنفور من صفات البلاغة والدقة المزعومة . ونحن نسوق نص الآية ونجعله وحده بمثابة التعليق والرد على هذه الدعوة الكاذبة ، قال الله تعالى فى الحكاية عن هذه القصة من سورة الصافات : « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه

السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى : قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم ) .

وهذه القصيدة الثانية يذكر فيها قصة مريم وعيسى يقول :

وفى دينكم من رب مريم آية ... منبئة والعبد عيسى بن مريم
تدلى عليها بعد ما نام أهلها ... رسول فلم يحصر ولم يترمرم
فقال ألا لا تجزعى وتكذبى ... ملائكة من رب عاد وجرهم
نبى وأعطى ما سئلت فإننى ... رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت له : أنى يكون ولم أكن ... بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم ؟
أأحرج بالرحمن إن كنت مسلما ... كلامى فاقعد ما بدالك أوقم
فسبح ثم اغترها فالتقت به ... غلاما سوى الخلق ليس بتوأم
بنفخته فى الصدر من جيب درعها ... وما يصرم الرحمن ملأ مر يصرم
فقال لها : إنى من الله آية ... وعلمنى والله خير معلم
وأرسلت لم أرسل غوياً ولم أكن ... شقيا ولم أبعث بفحش ومأثم

ومع أننا نظن أنه حكى فى هذه القصة صورتها فى القرآن فأنه تخلف فى أدائها وقوافيها إلى ما يجعلها غير جديرة بأن تقابل بكلام أهون الناس شأنا فضلا عن القرآن . نقوله « والعبد عيسى بن مريم » و « رب عاد وجرهم » و « يأتيك بابنم » و لاذات قيم » مع ركاكة الأسلوب وظهور القلق والضعف ، كل ذلك كاف لوضع هذا الكلام مع الانواع الرديئة من كلام ضعفاء البلاغة . ولا نجد فى الرد على ماينسب الى هذا الكلام من الدقة فى الأداء عن القرآن أبلغ من سياقة نص الآيات المشتملة على هذه القصة وهى من سورة مريم .

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا . قالت أنى

يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً . فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وبعد فأين الذين استجابوا لأمية بن أبى الصلت أو سواه حتى يقاس برسول الله أو يضاف شعره إلى القرآن وهو لم يسلم حتى من عقوق أبنائه ، وقد شكا ذلك فى شعره . والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ماكان به يحول طبائع الناس ويبدل ما فى جبلاتهم من الإباء إلى الطاعة ومن البغض إلى المحبة ومن الكفر إلى الإيمان ، حتى بلغ بأتباعه أنهم كانوا يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عذبوا فى سبيله وأوذوا وقاتلوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم ولم يزدهم ذلك إلا استمساكا به وإيمانا بشريعته ومضيا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله ، وضرب الدين بجرانه ، وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد ، وأصبحوا قادة العالم وسادة الأرض . وما ترى الأمم الأجنبية تشجى بشىء الآن أكثر مما تراه من تطلع الأمم الإسلامية إلى مجدهم الذاهب ، وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية ؟

محمد هاشم عطية